

تفسير ابن كثير

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ^ج وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا
يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ^ج ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي
التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ ^ج
يُعِجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ ^ق وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً
وَأَجْرًا عَظِيمًا

يخبر تعالى عن محمد صلوات الله عليه ، أنه رسوله حقا بلا شك ولا ريب ، فقال : (محمد رسول الله) ، وهذا مبتدأ وخبر ، وهو مشتمل على كل وصف جميل ، ثم ثنى بالثناء على أصحابه فقال : (والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) ، كما قال تعالى : (فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين) [المائدة : 54] وهذه صفة المؤمنين أن يكون أحدهم شديدا عنيفا على الكفار ، رحيمًا برا بالأخيار ، غضوبا عبوسا في وجه الكافر ، ضحوكا بشوشا في وجه أخيه المؤمن ، كما قال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة) [

التوبة : 123] ، وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر " ، وقال : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا " وشبك بين أصابعه كلا الحديثين في الصحيح .وقوله : (تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) : وصفهم بكثرة العمل وكثرة الصلاة ، وهي خير الأعمال ، ووصفهم بالإخلاص فيها الله - عز وجل - والاحتساب عند الله جزيل الثواب ، وهو الجنة المشتملة على فضل الله ، وهو سعة الرزق عليهم ، ورضاه تعالى ، عنهم وهو أكبر من الأول ، كما قال : (ورضوان من الله أكبر) [التوبة : 72] .وقوله : (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) : قال علي بن أبي طلحة ، عن ابن عباس : (سيماهم في وجوههم) يعني : السميت الحسن .وقال مجاهد وغير واحد : يعني الخشوع والتواضع .وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا علي بن محمد الطنافسي ، حدثنا حسين الجعفي ، عن زائدة ، عن منصور عن مجاهد : (سيماهم في وجوههم من أثر السجود) قال : الخشوع ، قلت : ما كنت أراه إلا هذا الأثر في الوجه ، فقال : ربما كان بين عيني من هو أقسى قلبا من فرعون .وقال السدي :

الصلاة تحسن وجوههم .وقال بعض السلف : من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار .
وقد أسنده ابن ماجه في سننه ، عن إسماعيل بن محمد الطلحي ، عن ثابت بن موسى ،
عن شريك ، عن الأعمش ، عن أبي سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله - صلى الله
عليه وسلم - : " من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار " والصحيح أنه موقوف .وقال
بعضهم : إن للحسنة نورا في القلب ، وضياء في الوجه ، وسعة في الرزق ، ومحبة في قلوب
الناس .وقال أمير المؤمنين عثمان : ما أسر أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه
، وفلتات لسانه .والغرض أن الشيء الكامن في النفس يظهر على صفحات الوجه ، فالمؤمن
إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله ظاهره للناس ، كما روي عن عمر بن
الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله علانيته .وقال أبو
القاسم الطبراني : حدثنا محمود بن محمد المروزي ، حدثنا حامد بن آدم المروزي ،
حدثنا الفضل بن موسى ، عن محمد بن عبيد الله العزمي ، عن سلمة بن كهيل ، عن
جندب بن سفيان البجلي قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : " ما أسر أحد سريرة
إلا ألبسه الله رداءها ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر " ، العزمي متروك .وقال الإمام

أحمد : حدثنا حسن بن موسى ، حدثنا ابن لهيعة ، حدثنا دراج ، عن أبي الهيثم ، عن
أبي سعيد ، عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : " لو أن أحدكم يعمل في
صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة ، لخرج عمله للناس كائنا ما كان " . وقال الإمام
أحمد [أيضا] : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، حدثنا قابوس بن أبي ظبيان : أن أباه حدثه
عن ابن عباس ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : " إن الهدي الصالح ، والسمت
الصالح ، والاقتصاد جزء من خمسة وعشرين جزءا من النبوة " ورواه أبو داود عن عبد
الله بن محمد النفيلي ، عن زهير ، به . فالصحابا [رضي الله عنهم] خلصت نياتهم
وحسنت أعمالهم ، فكل من نظر إليهم أعجبه في سمتهم وهديتهم . وقال مالك ، رحمه
الله : بلغني أن النصارى كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : " والله لهؤلاء
خير من الحواريين فيما بلغنا " . وصدقوا في ذلك ، فإن هذه الأمة معظمة في الكتب
المتقدمة ، وأعظمها وأفضلها أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقد نوه الله
بذكرهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة ؛ ولهذا قال هاهنا : (ذلك مثلهم في التوراة
(، ثم قال : (ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه [فأزره فاستغظ فاستوى على

سوقه) : (أخرج شطأه [أي : فراخه ، (فأزره) أي : شده (فاستغلظ) أي : شب
وطال ، (فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أي : فكذلك أصحاب محمد - صلى الله
عليه وسلم - آزره وأيدوه ونصروه فهم معه كالشطاء مع الزرع ، (ليغيب بهم الكفار)
.ومن هذه الآية انتزع الإمام مالك - رحمه الله ، في رواية عنه - بتكفير الروافض الذين
يغضون الصحابة ، قال : لأنهم يغيبونهم ، ومن غاظ الصحابة فهو كافر لهذه الآية .
ووافقه طائفة من العلماء على ذلك . والأحاديث في فضائل الصحابة والنهي عن التعرض
لهم بمساءة كثيرة ، ويكفيهم ثناء الله عليهم ، ورضاه عنهم . ثم قال : (وعد الله الذين
آمَنوا وعملوا الصالحات منهم) من " هذه لبيان الجنس ، (مغفرة) أي : لذنوبهم . ()
وأجرا عظيما) أي : ثوابا جزيلا ورزقا كريما ، ووعد الله حق وصدق ، لا يخلف ولا
يبدل ، وكل من اقتفى أثر الصحابة فهو في حكمهم ، ولهم الفضل والسبق والكمال الذي
لا يلحقهم فيه أحد من هذه الأمة رضي الله عنهم وأرضاهم ، وجعل جنات الفردوس
مأواهم ، وقد فعل . قال مسلم في صحيحه : حدثنا يحيى بن يحيى ، حدثنا أبو معاوية ، عن
الأعمش ، عن أبي صالح ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -

: " لا تسبوا أصحابي ، فوالذي نفسي بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مد
أحدهم ولا نصيفه " .آخر تفسير سورة الفتح ، والله الحمد والمنة .